تعريب التعليم في الجزائر ومشاكله

الأستاذ عبد الحميد المهيري - الجزائر

القى الاستاذ عبد الحميد المهيري رئيس اللجنة المصغرة للتعريب في الجزائر محاضرة قيمة في مقر الجامعة الجزائرية حول تعريب التعليم ، تعطي صورة عما يتخبط فيه تعريب التعليم في المغرب العربي من مشاكل ، ونحن نلخصها فيما يلي :

ذكر المحاضر في البداية انه لا يريد القاء محاضرة بالمعنى المتعارف وانما اثارة المناقشة حول الموضوع .

ثم قال ان ما سيعرضه من افكار ليست افكاره ، وانما آراء نضجت مع الزمن عند المهتمين بالتربية في الجزائر .

وقال ان تعريف المشكل يضعنا في نهاية التحليل وجها لوجه ، اما ضرورة تحديد اختيار لغة او لغات التعليم ، وهو اختيار لم نقم به بعد ، ذلك لان على الجزائر ان تضع سياسة بعيدة المدى للتعليم ، وهنا يلقي السؤال : هل يحسن بنا ان نتخذ لغة واحدة للتعليم ؟ ، وان الاجابة على هذا السؤال ليست سهلة كما يتبادر الى الذهن ، فهذه القضايا تثير مجموعة من المشاكل منها ما له صبغة لغوية بحت ، ومنها ما له اتصال بالجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية في نفس الوقت .

ولهذا فان معالجة المشكل لا يمكن ان تتم الا عن طريق الدراسة الكاملة لكل هذه الجوانب ، والاقتصار على جانب واحد يؤدي بنا الى حلول ناقصة .

وقال ان هذا التعقيد الناجم عن طبيعة القضية قد يتخذ ذريعة لابقائها دائما تحت الدرس والمناقشة .

ولن نستطيع ان نوفي جميع جوانب المشكل حقها من الدرس في محاضرة واحدة . ولكن نكتفي باثارة القضايا التي يتكون من مجموعها ما نسميه قضية « تعريب التعليم » .

واول الاعتبارات التي ينبغي اثارتها قضية اللغة العربية نفسها . فهي ليست اللغة الام لجميع الجزائريين ولكنها اللغة الوطنية لجميع الجزائريين .

واختيار هذه اللغة لم يات ارتجالا ولا بصفة اصطناعية ولكنه تم عبر القرون والتجربة التاريخية الطويلة . وكانت لغة التعليم في الجزائر قبل الاستعمار الفرنسي هي اللغة العربية في جميع مراحل الدراسة. وهذه حقيقة تجعلنا نقرر اولا بأن هذه المشكلة تهم سائر الجزائريين وبان حلها ينبغي ان يشارك فيه جميع الجزائريين بدون استثناء .

الحقيقة الثانية ان العربية كلغة ظهرت فجاة على المسرح العالمي وهي مكتملة من جميع النواحي . ولم يستطع اللغويون على ما اعرف ايجاد تحليل كاف لهذه الظاهرة .

ذكر المحاضر بتاريخ اللغة العربية الطويل وتطورها واضطلاعها ابان العصر العباسي بدور ضخم

هو تمثل مختلف الوان الحضارات ونقل هذا التراث الى الاجيال اللاحقة .

ثم اصاب العربية انتكاس نتيجة تخلف المجتمع العربي نفسه . وفي الوقت الحاضر تعرف هذه اللغة نهضة جديدة .

واشار المحاضر الى ظهور لهجات التخاطب في البلدان العربية ، مبينا ان هذه اللهجات على اختلافها تكون وحدة تمكن المتكلمين بها من التفاهم بجهد بسيط

وخلص المحاضر من ذلك الى القول :

باننا امام لغة قديمة قامت بدور اساسي وامام لغة خطاب مختلفة احتفظت بوحدتها . ثم امام ظاهرة ثالثة وهي ظهور ما يسمى باللغة المشتركة او العربية العصرية التي تجمع الاصالة ونوعا من التبسيط في متنها وتراكيبها يجعلها قادرة ومتفتحة على التيارات اللغوية المتصلة بها بشتى طرق الاتصال .

ثم اشار الى ان الاستعمار جعل ظل اللغة العربية يتقلص تدريجيا في المدرسة الجزائرية الى ان تفردت بها اللغة الفرنسية ، وهذا جعل المدرسة اداة لمسخ الشعب الجزائري وفرنسته .

وعند الاستقلال ، كان لا بد من تغيير هذه الوضعية ، وادخل في البداية وكخطوة اولى قدر ادنى من اللغة العربية كمادة درس اساسية في كل فصل .

وهنا وضعت مشكلة الاختيار أينصب على لغة واحدة للتعليم أم ينبغي الاحتفاظ بالازدواجية ؟ .

وقد راينا كيف ان هذا السؤال صعب الجواب نظرا لتشعب الموضوع ، وكيف ان طبيعة التشعب هذه تتخذ ذريعة لابقاء المشكل دائما تحت الدرس والمناقشة .

وقبل ان تتخذ الجزائر حلا جذريا ، حاولت الا يكون مجهودها المدرسي استمرارا لنشر الفرنسية في المدارس . فعربت مواد التاريخ والتربية الدينية والخلقية والمدنية والجغرافية مع كثير من التحفظ وعربت السنتان الاولى والثانية من التعليم الابتدائي واحدثت بعض الثانويات المعربة في اوائل الاستقلال . وكان هذا ما يمكن ان نسميه بالتجربة الجزائرية في حقل التعريب .

هل تكفي هذه الاجراءات لاخراج المدرسة الجزائرية من طبيعتها الموروثة وجعلها تعمل وفق الاختيارات الاساسية للجزائر ؟

اعتقادي الخاص وكثير من الاخوان في لجنة اصلاح التعليم ان ذلك لا يكفي وانها ان كانت خففت من هذه الطبيعة الموروثة ، فان المدرسة الجزائرية ما زالت وسيلة لنشر نوع من الفرنسية غير منظور . وهي لهذا السبب اخطر من المدرسة الفرنسية التي كانت تجابه الجزائريين بما يكرهون كاشفة القناع من وجهها .

والسبب الرئيسي لهذه الوضعية هو ان المدرسة الجزائرية لا عن اختيار بل لتوقفها على اختيار طريقة ناجعة للتعريب ، انتهت الى الازدواجية : العربية في الدراسات الادبية (النظريات) والفرنسية في العلوم

هذا الوضع يقدم للطفل الجزائري صورتين ، صورة الماضي متمثلا في اللغة العربية ، وصورة المستقبل وبالتالي للفعالية متمثلا في اللغة الفرنسية.

واذا استمر الوضع على هذه الحال فانه يوشك ان يحدث اختلال في شخصية المواطن الذي تكونه وان امتنا لا تريد ان تزيل ماضيا من الاذهان بعيدا عن الفعالية وقد يرتبط هذا الماضي عندها باللغة العربية .

وبعد ما اشار المحاضر الى الحجج التي يقدمها البعض عن قصد حسن بغية اصلاح جهاز التعليم وجعله ملائما لتوفير العدد الكافي من الاطارات لمقاومة التخلف ، وقولهم ان المهم ان يكون في البلاد مثل هذه الاطارات وان اللغة شيء ثانوي . هذا التيار في نظر المحاضر يعتمد على نظرة ليس فيها عمق ، لان التعريب لا يمكن ان يكون منافيا لهدف التنمية .

مقدرة اللغة العربية :

ويبدو من الوضع الحالي للتعليم بالجزائر ان هناك تعارضا ظاهريا بين تعريب التعليم وتقنيته . قد ينجم عنه الشك في مقدرة اللغة العربية كما قد يكون نتيجة نظرة سطحية الى واقع العالم العربي .

فمن حيث الشك في مقدرة اللغة العربية ، يمكن ان يرجع الى ان هناك دولة عربية تستعمل اللغة العربية كاداة لتعليم جميع المواد ، هي سوريا .

والمختصون بالدراسات اللغوية يؤكدون بان اللغة العربية قطعت شوطا بعيدا فى تطوير نفسها ، واصبحت مرشحة لان تكون لغة عالمية .

نعم هناك مشكل المصطلحات ما زال قائما لكون المجهودات الفردية بشانه مبعثرة غير منسقة . ولكن المشكل حاصل فى مستوى معين . هو غير حاصل فى مستوى التعليم الابتدائي ولا الثانوي ولا حتى بعض الدراسات الجامعية . وانما يوجد فى مستوى الاختصاص الضيق ـ والبحث العلمي ، والتبادل مع الغير .

فما يقال عن عجز اللغة العربية انما يقال بدون تمحيص . فهي صالحة كل الصلاحية بدون ادنى عائق فى مستوى الثانوي على الاقل .

على أن هناك الادعاء القائل بان اللغة العربية صالحة كاداة فى تلقين الدراسات الادبية والانسانية ، وغير صالحة لتلقين التقنيات .

أولا : مصطلحات العلوم الصحيحة قليلة ومحدودة .

ثانيا : الصفة التي تمتاز بها المصطلحات هي الدقة والوحدة .

وهذه مطالب غير عسير تحقيقها على جهود العاملين فى هذا المجال .

على أن هناك حقيقة يجهلها الكثير ، وهي أن مشكلة المصطلحات فى الدراسات الادبية والانسانية ، اكبر منها بكثير فى العلوم الصحيحة . وذلك لتشعب تلك الدراسات وصعوبة وضع المصطلح الدقيق بشانها

واعتقادنا ان هذا الامر المعكوس للغاية . وان القصد من ذلك تبرير الوضع القائم واكثر منه تعبير عن حقائق علمية .

الجانب الثاني : النظرة السطحية الى واقع العالم العربي .

تجارب العالم العربي فى ميدان التعريب :

اعتبر المحاضر ثلاث تجارب اساسية

1) تجربة سماها شاملة ، هي تجربة سوريا .

ليست جديدة،ابتدات اثناء الحرب العالمية الاولى تمت بتشجيع الخبراء الفرنسيين الذين كانوا يضعون التقارير تلو التقارير يؤكدون ان العربية صالحة فى جميع مراحل التعليم . وكان حافزهم الى الرغبة فى وقف انتشار اللغة الانجليزية فى المشرق العربي .

اعطت هذه التجربة نتائج يمكن ان تعتبر حجة كافية على صلاحية اللغة العربية . لكنها تصطبغ بنقص عابه السوريون انفسهم هو عدم اهتمامها بتدريس اللغات الاخرى .

هذا جعل المتخرجين ، وخاصة المختصين والمشاركين فى البحث العلمي يجدون بعض الصعوبة فى ميادين الاختصاص نظرا لضعفهم فى اللغات الاجنبية .

لكن هذا يمثل مرحلة هي الآن فى طريق الزوال.

2) تجربة وقفت فى نصف الطريق ، تمثلها ، مصر والعراق

وقفت عند الابتدائي والثانوي والدراسات الادبية والانسانية فى التعليم الجامعي ، وبقيت المواد العلمية باللغة الاجنبية .

وكان من نتائج هذه السياسة تناقض واضح يتمثل فى انشاء المجامع العلمية اللغوية من جهة ، ورفض استعمال العربية فى العلوم من جهة اخرى .

فوقوف التعليم فى الجامعة بالعربية لدى العلوم ليس منطقيا ، ولكنه مرتبط باوضاع .

هنا استعرض المحاضر الكفاح الذي خاضه الشعب المصري تحت الاحتلال الانجليزي لفرض اللغة العربية فى الابتدائي والثانوي ، واضطرار الحكومة للاستجابة واصرارها على عدم تعميمه على الجامعة .

وكيف ان الجامعات المصرية قامت بمجهودات الشعب الاهلية ولم تساهم فيها الحكومة .

وكيف أن القائمين عليها اقتصروا على تعريب النظريات لانها كانت فى متناول مجهوداتهم المتواضعة ولا تكلف كثيرا .

وكيف ان تجربة العراق تشابه كثيرا تجربة مصر ، ثم قال :

ان الاتجاه الذي فى سوريا ومصر والعراق هو التفكير الجدي فى اكمال الحلقة .

3) اقطار المغرب العربي :

تتميز تجربة اقطار المغرب العربي بالتوقيف عن البت فى اختيار لغة واحدة للتعليم ، وتخصيص اللغة الفرنسية لتلقين العلوم والتقنيات .

وهذه تجربة قد تؤدي الى مخاطر ، لانها مبنية على احكام سابقة غير ممحصة .

ثم لخص المحاضر الوضع فى العالم العربي ككل، فقال ان التجربة ككل تعتبر عامل اللغة ، وتتناسى اشياء اساسية ، وهي أن حركة التعريب بدأت فى وضع سياسي كان العالم العربي فيه خاضعا لنظم استعمارية، وان المجتمعات العربية فى ذلك الحين كانت مجتمعات اقطاعية او شبه اقطاعية .

ولهذا فان تجربة التعريب كانت منعزلة تعتمد تطوير اللغة بمفردها ، دون البحث فى الاسباب المؤدية الى تطوير المجتمع ككل . اذ مدى تطوير اللغة مرتبط بتطور المجتمع . وقد كانت تجربة تستهدف احداث ثورة فى اللغة، فى نفس الوقت الذى تريد تلافي احداث ثورة فى المجتمع .

وهذا من شانه ان يؤدي الى الاخفاق .

اذ كيف يمكن ان تتطور اللغة العربية فى مجتمعات اقطاعية او شبه اقطاعية لا وجود فيها لاساس مادي للعلوم والتكنولوجيا .

التعريب يبدأ الآن

وعلى هذا ، فان التجربة الحقيقية للتعريب تبدأ الآن بعد ان اصبح واضحا ان هذا لا يمكن ان يتم الا فى نطاق ثورة شاملة . فى اطار هذه الثورة يمكن ان تستكمل التجربة جميع اسباب النجاح .

النتيجة

انه اذا كان التعريب لم يؤد فى نظر الاجانب الى نتائج ايجابية ، فالمسؤول عن ذلك ليس اللغة العربية. ولكن فساد النظم التي كانت سائدة ، تعكس صورة للمجتمع، وفقا على طبقة محظوظة، محشوة بالنظريات، بعيدة من مجالات التطبيق يتميز بغلبة التكوين العام او الثقافة العامة على حساب العلوم الصحيحة والتقنية.

هذا الوضع لم يتغير جذريا . وهو قسمة مشتركة بين سائر اقطار العالم العربي ، ولا تشذ الجزائر عن ذلك .

ان الجزائر تحاول الآن ان تقوم بثورة شاملة فى جميع المجالات وسلوك سبيل الاصلاحات الجذرية بغية تطوير المجتمع اقتصاديا واجتماعيا. واننا متجهون الآن الى اصلاح نظم التعليم بما يوافق اختياراتنا الاساسية . وهذا عنصر مساعد جدا .

سياسة رجعية ؟

على اننا نرى بعض المتحمسين للثورة ينكرون امكانية ان تكون العربية فى الجزائر اداة للتربية . ويذهبون الى ابعد من ذلك اذ يتصورون ان العربية التي مضى عليها ردح من الزمن انكمشت فيه واصبحت لغة التعليم الديني فحسب ، وانقطعت عن تيار الحضارات والافكار الحديثة والعلوم التقنية ، لا يمكن ان تكون الا اداة لسياسة رجعية .

ومع ملاحظتنا على هؤلاء انه سواء بسواء يمكن ان تنفذ سياسة رجعية عن طريق الفرنسية ، فاننا اذا سلمنا ان العربية بما اصابها من تاخر بفعل تاخر المجتمع ، نرى ان احسن وسيلة لاجبار العربية على القيام بدور سلبي ، هو ابقاؤها بعيدة عن ميدان العلوم الصحيحة . لا غرو اذا اننا اردنا ان تلعب العربية دورا ايجابيا فى تطوير البلاد وتحقيق الثورة ، يجب ان نتخذها اداة للعلوم . هذه الاختيارات النظرية .

اضيف الى ذلك شيئا اساسيا هو الدعوة الى الازدواجية . وبهذا الصدد تعدد مزايا الازدواجية فى التعليم وفى الحياة .

اعتقد ان الازدواجية ليست ذات معنى واحد . فهذا اللفظ يمكن ان يطلق على اشياء كثيرة تختلف من حيث الدرجة كما تختلف من حيث الطبيعة .

ونحن نرفض الازدواجية مبدئيا لاسباب بديهية هي :

1) ان الازدواجية بين العربية والفرنسية ليس لها سند سكاني .

كان الامر يختلف لو ان الاقلية الاوربية قررت البقاء فى الجزائر اذن لكان المشكل قائما .

2) **نحن نفرض الازدواجية ، اذا كانت تعني اعتماد الفرنسية كوسيلة وحيدة للتفتح على الحضارة العصرية ، لاننا لا نسلم بعجز اللغة العربية عن تادية هذا الدور .**

يبقى هناك نوع من الازدواجية نسميه بالازدواجية التربوية . ويدعو اليه الكثيرون من المربين فى العصر الحديث . **معناها تعلم اللغات الاجنبية .**

والازدواجية بهذا المعنى يمكن اعتبارها اذا كانت لغة التعليم موحدة والعربية لغة تدريس لجميع المواد فى جميع المراحل ، يمكن اذ ذاك ان نفكر فى تعليم اللغات الاخرى من اجل التفتح والاتصال .

والازدواجية بهذا المعنى بدا تطبيقها فى بعض البلدان على سبيل التجربة وهي ما زالت فى طور التجربة .

ونحن نستطيع ان نسلم جدلا بان الجزائر فى استطاعتها ان تتبنى هذه التجربة فى النطاق الوطني العام . وهذا يمكن ان يناقش ويستفاد منه .

التعريب من الناحية العلمية

الجميع يقر بان **العملية لا يمكن ان تتم دفعة واحدة . والتدرج نفسه اذا لم يطبق بدقة قد يكون سببا فى الفشل وذريعة تتخذ لفرض مبدا التعريب نفسه .**

والتدرج يصطدم بصعوبات اهمها :

صعوبة توفير الوسائل البشرية والمادية والتربوية لتعريب صف كامل (التدرج العمودي من الاسفل الى الاعلى) . وهذا التدرج العمودي منطقي، ولكن صعب تخطيطه . فهو يضع المسؤولين امام آجال لا تقبل التاخير . وفيه ايضا اجبار التلاميذ على تغيير اداة التعليم فجاة (ابتداء من السنة الثالثة الابتدائية الآن) : هناك التدرج الافقي = ان تعرب كل سنة مجموعة من المدارس الابتدائية والثانوية تعريبا شاملا وفق سلم التعليم .

مثلا = مائة مدرسة ابتدائية

وفى نفس الوقت 10 اعداديات

وبعد سنة 5 ثانويات

وقد يمكن التوسع اكثر اذا سمحت الامكانيات.

هذه الطريقة تضمن للتلاميذ ترقيا فى السلك يوصلهم الى الباكلوريا بدون عائق .

ويمكن ادخال اللغة الاجنبية ابتداء من السنة الرابعة او الخامسة ليتمكنوا من مواجهة تعليم الجامعة بالفرنسية ، اذا لم نكن قد تمكنا من تعريب الجامعة اذ ذاك .

خصم لوحدة التعليم :

هناك من يرى فى هذا التدرج خصما لنظام وحدة التعليم الواقع ان الامر لا يخلو من ذلك . وقد نعيش لفترة طويلة على نظامين تعليميين يختلفان قليلا . ومع ذلك فان الفرق بين النظامين يكون **فى العلوم الصحيحة فقط** . ومن السهل ان نتصور **التلاميذ الذين يتابعون النظام الانتقالي الحاضر بما يحصل لهم من ملكة فى اللغة العربية ، يصبحون قادرين على مواصلة تعليمهم العالي باللغة العربية .**

هذا التدريج يمكن من التغلب على كثير من المشاكل ، الا انه لا يعفينا ايضا من الاحتياجات البشرية والتربوية والمادية ، ومن الآجال الواضحة .

واخيرا فان تعريب التعليم لا يمكن ان يتم بواسطة الجهاز التقليدي لوزارة التربية ولا بد من انشاء مؤسسات تسهر على حركة التعريب ؛ وهي فى نظري :

1) **مركز وطني لتيسير اللغة العربية ونشرها .** لا كمجمع ، اذ لا فائدة من ذلك بل مركز يجمع بين البحوث الاساسية فى العربية ومحاولة ايجاد الحلول لمشاكل العربية ، وليست العربية بدعا بين اللغات فى ذلك . وقد تكون المشاكل فى العربية تختلف من حيث الدرجة ولكنها لا تختلف من حيث الطبيعة بالنسبة للغات اخرى .

اتصور **المركز ملتقى الباحثين** من رجال التربية واللغة والتعليم ، **لايجاد احسن الحلول لتعليم اللغة العربية** لا فى المدرسة وحدها ، ولكن باساليب عصرية ووظيفية للعدد العديد من الجزائريين المتعطشين للتزود بهذه الاداة التي تمكن من الاسهام الحقيقي فى تعميق جذور الثورة وجعل معركة التعريب معركة الشعب .

مدرسة الترجمة

من هذه النواة يمكن الانطلاق لاعطاء مفهوم جديد للترجمة يجعل منها لا عملا هامشيا ، ولكن أساسا لتطوير المجتمع وتنظيم العلاقة بينه وبين الشعوب .

ينبغي اذن تكليف المدرسة برسالة اخرى . لا ينبغي أن نقنع بتكوين التراجمة للاعمال اليومية ، بل أن ننزع الى تخصيص علماء في مختلف المواد والعلوم لتكريس جهودهم لعمل الترجمة الذي هو على ما اعتقد عمل اساسي في بناء النهضة العلمية .

المؤسسة الثالثة

تنظيم واسع شعبي اعتقد من السابق لاوانه تصور جميع عناصره. ولكن اتصوره على شكل مؤسسة تجمع بين مسؤولين معينين يحتلون مراكز حساسة بالنسبة للعمل الاداري والجماهيري ، يسهرون على تطبيق المخطط العام للتعريب وربط تعريب التعليم بتعريب بقية الميادين .